

بين عالمين : بناء الإمبراطورية العثمانية*

(جمال كفادار)

قراءة عبد اللطيف الحارس

الإشكالية العامة التي تناولها الكاتب بدءاً هي محاولات كل من كوبرولو وفيتيك تفسير قيام الدولة العثمانية بناءً على فرضية أحادية الجانب (القبلية أو الغزو). وعلى الرغم من ميله العام إلى مبدأ الغزو، إلا أنه قدم ومن خلال فصول كتابه دراسة تحليلية قيّمة لمعنى هذا المفهوم وللتغيرات التي طرأت عليه نتيجة التغيرات السياسية والاجتماعية التي طرأت على مجتمع التخوم.

الدولة العثمانية كظاهرة تاريخية كانت نتاج مجتمع له خصائصه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، هو مجتمع التخوم، كما كانت أيضاً نتاج عبقریات أجيال من الشخصيات العثمانية الفذة المُبدعة التي لعبت دوراً هاماً في وضع الأسس الصلبة التي قامت عليها الدولة، وتحديد توجهاتها السياسية وديناميكية تحالفاتها وصراعاتها.

إن الوضوح المنهجي الذي اتبعه الكاتب في تحليل المرويات التاريخية ذات الصبغة الأسطورية والتي رفض استخدامها كمصادر تاريخية من قبل العديد من البحاثة، ومرونته في التعاطي معها، ليس كتفصيلات دقيقة حقيقية لأحداث وقعت فعلاً، وإنما كخلفية ثقافية اجتماعية سياسية لمجتمع التخوم. كما أن اعتباره للعثمانيين كجزء من هذا المجتمع دون أن يكون لهؤلاء وجود يذكر

في المرويات بشكل عام، أظهر أيضاً مدى البراعة المنهجية التي يتحلى بها هذا الكاتب.

أما في تعاطيه مع المصادر التاريخية، فقد كان عليه أن يتناول موضوعات شائكة عديدة، من التأثيرات الأيديولوجية والسياسية والدينية، إلى مشكلة أقدمية المصادر التاريخية؛ رافضاً فكرة لندرن القائلة أن المؤرخين العثمانيين كانوا مؤرخي بلاط، دون أن ينفي تأثيرات أيديولوجية الدولة على هذه الكتابات. ويعطي أمثلة تاريخية لكيفية تعاطي المؤرخين مع بعض الأحداث الهامة التي تمحورت حولها أيديولوجية الدولة والتي كان لها تأثيرها على الوجهة التاريخية لتطور الدولة: من مسألة قتل الإخوة، إلى مسألة مركزية الدولة، وموقف الدولة العثمانية من مفهوم الغزو خلال هذه التطورات.

ويعتمد في النهاية إلى تطبيق المفاهيم والمبادئ التاريخية التي استنتجها من دراسته التحليلية النقدية، للتوصل إلى رواية تاريخية واضحة حول قيام الدولة العثمانية. فمن إنجازات عثمان الأولى التي شكلت القاعدة الصلبة والأساسية لقيام الدولة ووضعت البذور الأساسية لمفاهيمها السياسية: استراتيجية المصاهرة، استراتيجيات عسكرية، سياسة تحالفات متحركة وديناميكية تخدم حاجة الدولة، وسياسة مركزية قدر لها في القرن السادس عشر أن تصبح، بعد أن كانت واحدة من الديناميات لأوائل التاريخ العثماني، الدينامية المسيطرة في تحديد شكل الدولة التي بُنيت في النهاية. وأسلوب الكتاب بشكل عام سلس ومشوق (رغم بعض التردد)، والتفاصيل المملة أحياناً) ونتعرف من خلاله، ومن خلال التجديدات الفكرية والمنهجية التي يطرحها، على قصة موضوعية تغير الكثير من معارفنا واضحة رؤيتنا لمفهوم قيام الدولة العثمانية. والكتاب موضوعي ومُنصف مُشعر معه بحساسية المواقف وأهمية المنعطفات التاريخية التي كان على الدولة العثمانية أن تجتازها، والثنى ضمن إطار الصراعات والتحالفات، الذي كان عليها أن تتحمل تبعاته. وفيما يلي أهم الأفكار التي تناولها الكاتب ضمن هذا الإطار العام.

I

يمهّد جمال كفادار لدراسته عن قيام الدولة العثمانية بالتساؤل الذي ساد بين أوساط المؤرخين وطُرِح بعد الحرب العالمية الأولى عندما أصبح زوال الدولة العثمانية أمراً وشيكاً، وهو كيف يمكن لهذه الدولة التي تظهر الآن ضعيفة ومتداعية، أن تكون في الماضي على قدر هائل من النجاح؟ ومن هنا بدأت عودة الاهتمام التاريخي بموضوع قيام الدولة العثمانية التي أسست واحدة من أعرق الامبراطوريات وأطولها عمراً (1300 - 1922) إلا أنها وفي الوقت نفسه أقل الامبراطوريات التي درست أو فُهِمَت في التاريخ العالمي.

ويرى الكاتب في مقدمة كتابه أن الدولة العثمانية قد تطورت من إمارة على أطراف دار الإسلام لتصبح القوة الأعظم في عالم إسلامي أوسع. وكانت ولادتها مميزة وفريدة، ولكنها وبمعنى معين شكلت أيضاً تنويجاً للتاريخ العام للمجتمعات السياسية الإسلامية. وبالنسبة لمعظم التراث التاريخي فإن أسلاف عثمان المباشرين وصلوا إلى الأناضول مع الموجة العظيمة الثانية للهجرة التركية من وسط آسيا، والتي حدثت إثر الهجوم الجانكيزخاني في أوائل القرن الثالث عشر.

الموجة الأولى لهجرة الأتراك حدثت في القرن الحادي عشر عندما عبرت أعداد كبيرة من القبائل التركية، التي تنتمي بأكثريتها إلى الأوغوز من آسيا الداخلية، نهر جيحون وتحركت باتجاه غربي آسيا. ومن بين هذه القبائل تمكن السلاجقة من الانخراط السريع في السياسة وعلى أعلى المستويات في بغداد، وانتهوا إلى تكوين سلالة سيطرت على الدولة. وركزت قبائل أخرى عديدة وجودها على طول الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية. وكانت عملية دخول هذه القبائل إلى آسيا الصغرى تتم أحياناً بشكل مستقل، وأحياناً أخرى بشكل متناقض مع إرادة الدولة السلجوقية.

وبكل الأحوال فإن النزاع المستمر في شرقي الأناضول إبان القرن الحادي عشر أدى إلى المواجهة بين الجيشين السلجوقي والبيزنطي في معركة ملاذكرت (Mantzikert) (19 آب 1071م) التي كانت نقطة تحوّل في تاريخ

غربي آسيا بصفة خاصة وفي التاريخ الإسلامي بشكل عام؛ إذ بدأ معها تغير مباشر للخارطة السياسية في هذه المنطقة التي لم تعرف الاستقرار النهائي لها لمدة أربعة قرون حين تمكن العثمانيون من إقامة حكمهم الموحد عليها في أواخر القرن الخامس عشر. وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها السلاجقة والتي جعلت آسيا الصغرى بمجملها تحت سيطرتهم السياسية، إلا أن طبيعة حكمهم الذي كان سريع العطب والزوال، لم يصنع وحدة سياسية حقيقية. ومن المنصف القول أن سلاجقة الأناضول كانوا يسعون إلى تثبيت سلطتهم في العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر، وفشلهم يُعزى في أكثره إلى عامل خارجي هو الجيوش المغولية التي لا تقهر. ومع خسارة السلاجقة أمام الجيوش المغولية في كوزداغ في آسيا الوسطى سنة 1243، ساد الاضطراب والتمزق هذه المنطقة، في وجود قوى متعددة تخوض صراع حياة أو موت في مرحلة من أشد مراحل العنف والفوضى. وقبل نهاية القرن الثالث عشر كانت عدوى التجزئة السياسية قد أدت إلى بروز إمارات صغيرة متعددة ومناطق قبلية مستقلة نسبياً في مناطق عديدة من الأناضول.

واحدة من هذه الإمارات الصغيرة، القائمة في الشمال الغربي لبشينية «Bithynia» التي كانت ما تزال جزئياً تابعة لبيزنطية، كانت تخص عشيرة شخص يدعى عثمان، الذي يعتبر المؤسس لإمارة فاقت الإمارات الأخرى، الأناضولية والبلقانية. ومن هنا بدأت قصة النجاح والتي تتوجت في ظاهرة التوسع في الأراضي التي خضعت للبيت العثماني. كان التوسع العثماني بطيئاً بمقارنته مع فتوحات التشكيلات المغولية - التركية في آسيا الداخلية، أو حتى بمقارنته مع النهوض السريع للبيت السلجوقي في بغداد مركز الخلافة الإسلامية؛ وربما لهذا السبب كان هذا التوسع أكثر استمراراً. فنسبياً أخذ العثمانيون وقتهم في بناء دولتهم وحصلوا على نتيجة مرضية. أخذوا وقتهم في بناء ائتلاف لهم مؤلف من قوى متعددة، وإعادة بنائه كلما تغيرت الظروف، وقد كانوا متحمسين لبناء مؤسسات نظامهم السياسي. فكانت عملية بنائهم للدولة تدريجية ولا تخلو من الصراع، واستمرت أكثر من قرن ونصف منذ أعمال عثمان الأولى إلى فتح العاصمة البيزنطية من قبل حفيده الخامس

محمد الثاني (1451 - 81)، عندما أصبح بإمكاننا القول إن العثمانيين قد توصلوا إلى المستوى الإمبراطوري وكانوا الحل النهائي لعدم الاستقرار السياسي الذي ساد الأراضي الرومانية الشرقية منذ وصول القبائل التركية في القرن الحادي عشر.

II

مالت الكتابات التاريخية للعثمانيين، منذ بواكيرها المكتوبة في القرن الخامس عشر وحتى حقبة متأخرة من تاريخ الإمبراطورية، إلى البدء مع سلالة عثمان وحلمه في مواجهة الاضطرابات السياسية والمادية التي سببتها الجانكيزخانية في غرب آسيا. وتبرز هذه الكتابات سلسلة من الحوادث المرتبطة بظهور وتوسع السلطة العثمانية. ولكن أياً من هذه المؤلفات لا يحتوي على أي تفسير أو تحليل لما تذكره من أسباب وعوامل. وإنما هي مجرد سرد لأحداث تالت، حول دول وسلالات تعاقبت. وكان هناك مؤلفات جمة لمؤلفين عديدين من عصر النهضة الأوروبية، حللوا قوة النظام العثماني كما أصبحت بعد مرحلة البناء الإمبراطوري، ولكنهم لم يظهروا اهتماماً بعملية البناء بحد ذاتها، ولذلك لم تركز دراساتهم على الأطوار الأولى من التاريخ العثماني، أو على المراحل التكوينية للدولة.

الدراسة الأولى المخصصة لقيام الدولة العثمانية، نشرت سنة 1916 من قبل غيبون (1880 - 1934)، الذي كان أول من طرح في دراسة خاصة مسألة جذور الدولة العثمانية. واحدة من تأكيدات الجديدة والجذرية كانت أن عثمان وتابعيه كانوا أتراكاً وثنيين يعيشون حياة بدوية رعوية على الحدود البيزنطية. ثم دخلوا الإسلام في مرحلة معينة من عمل عثمان. واعتقد غيبون أن قصة حلم عثمان الإلهي ربما كانت أسطورة، إلا أنها كانت تهدف إلى التعبير عن فترة معينة من الحياة الفعلية لهذا الزعيم الشاب، وبالتحديد فترة اعتناقه لدين جديد واتباعه لسيرة سياسية - عسكرية جديدة باسم هذا الدين. وتوضح قصة الحلم أيضاً بالنسبة لغيبون، بأن هؤلاء البدو قد أجبروا العديد من جيرانهم المسيحيين أيضاً على التحول نحو الإسلام. وحسب غيبون، فإن

«الأربعمائة خيمة» التي تشكل قبيلة عثمان لا بد أن يكون قد انضم إليها العديد من الداخلين الجدد في الإسلام مما أدى إلى ازدياد عدد هذه الجماعة «عشرة أضعاف»، وهؤلاء المتحولون الجدد شكلوا أكثرية العثمانيين الأوائل وقدموا الخبرات الضرورية لإقامة حكومة. ولذا يستنتج غيبون بأن «القوة الخلاقة للامبراطورية العثمانية يجب أن لا تُعزى للشعب الآسيوي وإنما للعناصر الأوروبية». فهذه المؤسسة العثمانية الناجحة لا يمكن أن تكون قد بُنيت من قبل «آسيويين». وتمتعت نظرية غيبون باعتراف واسع خارج عالم المستشرقين، حيث كان معظم الباحثين في التاريخ العثماني وتاريخ الشرق متقدين لغيبون.

نشر محمد فؤاد كوبرولو (1890 - 1966) أهم مؤرخي جيله من الأتراك - أفكاره حول قيام الدولة العثمانية في الثلاثينات. وقد رأى يومها - رداً على غيبون - أن التوسع السياسي - العسكري في الأناضول يعود إلى الضغط الديموغرافي للقبائل التركية الهاربة من الجيوش الجانكيزخانية. وبالنسبة لكوبرولو فإن حاشية عثمان المباشرة تكونت من أعضاء من قبيلة كانوا جميعاً من أصل مشترك، وعندما صمموا على إقامة هيئة سياسية لهم، فإن أعدادهم قد تزايدت، من جهة من قبل عناصر تركية من نفس المنطقة، ومن جهة ثانية من قبل أصحاب خبرة يمثلون الثقافة الإدارية والسياسية للمسلمين - الأتراك في المناطق الخلفية المعقدة. وقد حدثت بعض التحولات الدينية، إلا أن الدولة العثمانية كانت أساساً دولة تركية، بُنيت من قبل الأتراك، وكل عناصر الثقافة السياسية العثمانية تقريباً يمكن تفسيرها على ضوء التراث الإسلامي - التركي المستمد من آسيا الوسطى والشرق الأوسط. التضامن الإثني والقبلي وكذلك ميراثهم المؤسساتي المعقد، سمح لهم ببناء دولة من خلال ضغط ديموغرافي في فراغ سياسي نسبي. رؤية كوبرولو هذه كان لها صدق حسن عند الأتراك وأصبحت حجر الزاوية في الكتابة التاريخية للقومية التركية.

وكان كوبرولو ملتزماً بمعتقد قومي أساسي. فإذا كان على الدولة العثمانية أن تُرى على أنها من خلق الأتراك، فإن هؤلاء الأتراك ينبغي أن يكونوا من الأتراك الأصليين الفعليين وليس الممتكرين حديثاً. لذلك كتب

كوبرولو يقول: «من بين رجال الدولة العثمانية العظام الذين اكتسبوا شهرة في القرن الرابع عشر، وحتى في القرن الخامس عشر، كان هناك القليل جداً من المتحولين المسيحيين... والأشخاص الذين كانوا على رأس السلطة والجيش كانوا وبشكل شبه ثابت أتراكاً. وكل الوثائق التاريخية التي نملكها تؤكد بشكل قاطع هذه القضية».

ويبدو أن صحة رواية كوبرولو كان مشكوكاً فيها، ليس بالضرورة بسبب تحليل محتوياتها وإنما وببساطة لأن كوبرولو كان معروفاً بانغماسه في مناظرات قومية عنيفة، وبالتزامه بمفاهيم الصفاء الإثني. وهذا ما جعل قصته حول قيام الدولة العثمانية، تهبط إلى مستوى أفضل رواية ممكنة لكتابة تاريخ قومي. هذا على الرغم من الاحترام الذي حظي به كوبرولو كبجائه. وعلى أية حال لا يمكننا أن نتغاضى عن رأي جماعة العلماء الأتراك وإلى حد ما البلقانيين، حيث لا تزال أفكار كوبرولو - غيبون تلعب دوراً هاماً. أما في تركيا فقد كادت وجهات نظر كوبرولو القبلية - الإثنية، إضافة إلى تركيزه على المصادر الإسلامية - التركية للجهاز الإداري العثماني، أن تصل إلى مستوى العقيدة تقريباً.

وفي نفس الوقت، كانت نظرية بول فيتك (1894 - 1978)، والتي صاغها في الثلاثينات أيضاً كردّ على كوبرولو، قد اكتسبت سمعة عالمية كأفضل قصة مقنعة للنجاح العثماني. لقد وجد فيتك بأن مقولة القبلية الإثنية غير مقنعة، ولذا فقد ركز على الاستمرارية في الثقافة الإسلامية - التركية دون أن يُهمل حدوث التحول الديني والتعاون الإسلامي - المسيحي. بالنسبة إليه، إن ما أوقد حماسة الفاتحين العثمانيين الأوائل جوهرياً هو تعهدهم بالغزو، وهو «إيديولوجية الحرب المقدسة» باسم الإسلام. وقد بُنيت القوة العثمانية على هذا التعهد، كما عُبر عن ذلك في نقش أقيم في بروسه (بورصة) سنة 1337، يُطلق على ابن عثمان، أورشان لقب «غازي ابن غازي». ويرى فيتك أن هذه الروحية المشتركة (روحية الغزو) قد أمنت للمحاربين التلاحم ووحدة الهدف، بينما أمنت الخبرات الإدارية للعلماء والبيروقراطيين القادمين من المراكز الثقافية الإسلامية تنظيم هذه الممتلكات التي أصبحت تحت

سيطرتهم. وقد ساد بعض التوتر هذين العنصرين لأن الغزاة كانوا ينتمون إلى ثقافة تخوم تداخلت فيها ثقافات المؤمنين والهرطقة. إلا أنه ومع مرور الوقت سيطرت المحافظة الدينية مع بناء العثمانيين لإدارة مستقرة. صيغة فيتك هذه والتي تشترك بالكثير مع صيغة كوبرولو، ما عدا تجنبها للإثنية وتركيزها الأحادي الجانب على الدافع الديني كسبب رئيسي للقوة العثمانية، قُبلت بشكل واسع وانتشرت في صيغتها الجوهرية المعروفة بـ «مقولة الغزو» ومما يؤكد في رأي فيتك أهمية روحية الغزو بالنسبة للوضع العثماني الأول، هو أن جماعة الغزو هذه من الممكن أن ينضم إليها أعضاء من بعض القبائل الأخرى، إذ إنها لم تكن تتألف من مجموعات قبلية متجانسة، وعلى الأغلب فإنها تكونت من محاربين مغامرين من خلفيات مختلفة. ولذلك فإن جماعات الغزاة بالنسبة لفيتك لم يكونوا قبائل، إذ كانت تربطهم ببعضهم البعض كل الروابط ما عدا النسب. ولذلك رفض فيتك فكرة أن القبيلة يمكن أن تكون الوسيلة لتأسيس الدولة العثمانية. الفروقات بين كوبرولو وفيتك حول هذه النقطة لم تناقش بشكل واضح في الأبحاث المتأخرة لأن الموضوع قد أثقل بالاعتبارات القومية ونقائضها. ومن هذه الزاوية، فإن دور المنشقين البيزنطيين والمُهتدين في واحدة من الإسهامات السياسية الأساسية للحضارة الإسلامية - التركية كان من المواضيع الحساسة والمشحونة.

لقد أصبحت «فرضية الغزو» لفيتك الرواية النهائية لمصادر الدولة العثمانية في جزء واسع من عالم المثقفين. ولقد نُسخ تصور فيتك هذا بشكل خاص وأعيد نسخه إلى أن تحول إلى نص اعتقادي تقليدي في جزء واسع من العالم. إلا أنه ليس بإمكاننا أن نعرض لمقولة فيتك على أنها تمثل إجماعاً في هذا الحقل، كما فعل بعض مؤيديه، لأن نفس المصير أصاب نظرية كوبرولو في تركيا.

فتح الأرشيفات العثمانية غير مجرى الدراسات العثمانية بدءاً من سنة 1940. ففي كتاب صدر سنة 1947، طرح جورج ارناكس تساؤلات حول منهجية ونتائج كل من كوبرولو وفيتك. وأهم ما توصل إليه ارناكس هو أن نظرية غيبون، بأن الامبراطورية العثمانية كانت أساساً من صنع الأوروبيين

وليست من صنع الشعب الآسيوي، حصلت على دعم. أما وجهة نظر كوبرولو المعاكسة والقائلة بأن العثمانيين لم يكونوا سوى تجسيد لكل ما هو مسلم وتركي، فقد انتقدت بشكل لاذع ووصفت بأنها فكرة إثنية تركية حديثة، وأن فيتك قد أبرز أيديولوجية الغزاة بدلاً من العرق التركي، كما فعل كوبرولو. ويرى ارناكس أنه لم يكن هناك تعصب إسلامي خلف النشاطات العسكرية للعثمانيين الأوائل؛ فهدفهم، كما أوضح ارناكس، لم يكن نشر الإسلام أو تحطيم المسيحية وإنما وببساطة الغنيمة. وقد أوجز ارناكس نقطتي الاعتراض الأساسيتين ضد فيتك: أولاً؛ إن نقش بروسه والتاريخ الأحمدى يمكن تجنبهما كأيديولوجية متأخرة، وأن هناك تعارضاً بين روحية الغزو والمواقف غير العدائية للعثمانيين الأوائل نحو جيرانهم البيزنطيين ونحو الديانات ما قبل الإسلامية.

بكل الأحوال يبدو أن هناك إجماعاً بين كل هؤلاء الباحثين من ناحية تقديرهم للدولة العثمانية الأولى. ولكن السؤال الهام هو: إنجاز من كانت؟ يؤكد ارناكس بأنه مع فتح بروسه وجعلها عاصمة الدولة تعزز العثمانيون بالتقدم الاجتماعي لسكانها المدنيين. فتقدم العثمانيون وانتشارهم السريع في أوروبا يعزى إلى التجربة الإدارية والتقاليد المدنية لمواطني بروسه، ونيقية ونيقوميديا. ومن الواضح إذاً أن ارناكس مثل غيبون قد ركز على إسهامات العناصر غير التركية وغير الإسلامية بالأساس في قيام الدولة العثمانية. ولذا فإن بإمكاننا أن نميز وبوضوح بين خطين محددين لطريقة فهم بدايات التاريخ العثماني: الخط الذي اتبعه غيبون ورناكس والآخر الذي اتبعه كوبرولو وفيتك.

ولم يرق أي جدال حيوي جديد انتج أفكاراً وأبحاثاً جديدة حتى الثمانينات من القرن العشرين، حيث ارتفع العديد من الأصوات، المستقلة عن بعضها البعض، ضد مقولة فيتك. وعلى الرغم من أن إعادة فتح النقاش حول نظرية تمتعت بالسيادة لحوالي نصف قرن من الزمان، هو من الأمور المؤكد الترحيب بها، إلا أن وجهة النقاش هذه ضد مقولة الغزو احتوت العديد من الأخطاء. والأهم من ذلك أنها بنيت على أساسيات دفعت ناقد فيتك إلى

افتراض، وبشكل أكثر صلابة حتى من المستشرقين الأوائل، وجود «إسلام حقيقي» في مجتمع التخوم، افتراض تماثل مقاييسه مع «الغزاة الفعليين». ومن هذه الزاوية، فإن أكثر المواقف راديكالية كان موقف لندرن الذي كان مستعداً ليتصرف مثل واحد من أعضاء محاكم التفتيش تقريباً، ويحرم العثمانيين الأوائل من انتمائهم الديني.

وعلى الرغم من كل شيء، يجب أن يكون واضحاً، أن فرضية الغزو لثيتك، حتى عندما كانت في أوجها، لم تحظى بتأييد جميع الباحثين في هذا الحقل، وكانت هناك دائماً بحوث مستمرة عن تفسيرات بديلة. وحتى لو كانت روحية الغزو قد قبلت على أنها لعبت دوراً، إلا أنه كان هناك دائماً دافع واضح للتفكير بعوامل أخرى، وخاصة الاقتصادية والاجتماعية منها، مثل التجارة، الديموغرافية، علاقة البدو - والحضر، وكذلك الصراعات الاجتماعية باعتبارها ديناميات أنتجت امبراطورية. وفي بداية الثمانينات كتب خليل اينالجيك - الذي ما لبث أن ظهر في مقدمة عثمانيي جيله وقدم اسهاماته الخاصة في مسائل عديدة تتعلق بالفترة الأولى من التاريخ العثماني - مقالةً جامعةً موجزةً ورائعةً، أدخلت معظم هذه العناصر مع روحية الغزو. فقد رأى اينالجيك أن فرضية الغزو كانت أكثر مرونة وأنه من الممكن دمجها في نسج من العوامل يتضمن حتى المادية منها. ويجب أن يكون واضحاً أن هذه المناقشات بقيت مرتبطة بثيتك. فأفكار كوبرولو بالكاد نوقشت، وأفكار غييون وارناكس بالكاد ذكرت.

ويرى الكاتب أن خصائص الفئات الاجتماعية (كمجموعة الغزاة) لا يمكن أن تستخلص من التعاريف المعجمية لتسمياتهما، وإنما من تفاسير المصادر التي تصف أعمال الغزاة، وعلاقاتهم مع فئات اجتماعية أخرى، وتصف كذلك خصائصهم الثقافية كما تبرز في بيئتهم التاريخية الخاصة؛ ثم يردف مؤكداً: يجب أن نتوجه إلى هذه المصادر لنعرف كيف فهم الغزاة ومناصروهم مبدأ الغزو والمفاهيم المتعلقة به؛ ويستغرب محقّقاً من أن أحداً، من بين الذين يقبلون أو يرفضون دور روحية الغزو في بناء الامبراطورية العثمانية، لم يحاول التحقق وعلى قاعدة تحليل دقيق للمصادر التي تروي

أعمال الغزاة، من طبيعة هذه الروحية كظاهرة تاريخية؛ لينتهي مقررأ أن هدفه بعد إعادة تقييم الكتابات التاريخية، هو إعادة بناء هذه الروحية المميزة وكذلك البيئة السياسية والاجتماعية للتخوم في أواخر العصور الوسطى للأناضول من أجل التوصل إلى فهم أفضل لقيام الدولة العثمانية.

III

ينتقل الكاتب في الفصل الثاني إلى دراسة ونقد وتحليل المصادر التاريخية الأساسية لمسألة قيام الدولة العثمانية. ولكن لا يوجد في الحقيقة أية وثيقة تاريخية أصلية مكتوبة تعود إلى زمن عثمان كأمير. الشيء الوحيد المكتوب والمتبقي منذ أيام عثمان ليس مكتوباً على ورق وإنما على قطع نقدية؛ ولا يمكننا أن نستنتج الكثير من هذه الكتابات الموجزة على القطع النقدية. ولكن قبل نقش بورصة لسنة 1337، والذي لا يعطينا سوى لمحات مقتضبة عن الصورة الذاتية للعثمانيين الأوائل، فإننا نجد صكاً وقفياً يعود إلى سنة 1324؛ وقيمته التاريخية أنه يذكر أورخان ووالده المتوفى عثمان بألقابهما: «شوكت الدين وفخر الدين» مما يؤكد بأن العثمانيين قد تبنا تسمية إسلامية تتناسب مع المجتمع الأناضولي المسلم، وأنهم كانوا مواكبين للتطورات التي طرأت على مجتمع الأناضول. ولذا يبدو من المستحيل أن لا يتأثروا بالعناصر الثقافية التي كانت سائدة وبكثافة في المنطقة.

الغزو في مرويّات التخوم

كانت التقاليد الشفهية هي الطاغية في الجانب الثقافي لمجتمع التخوم وخاصة الروايات «التاريخية» التي مثلت مفاهيم هذا المجتمع بكامل مثالياته وإنجازاته. ومن وقائع المصادر المتبقية يبدو أن شعوب التخوم لم تكتب تاريخها حتى القرن الخامس عشر. إلا أنهم أخبروا ما اعتبروه روايات تاريخية محبوبة حول محاربيهم الأسطوريين ودراويشهم. نوعان من المرويّات كان لهما دور هام في تشكيل الوعي التاريخي لعشب التخوم: ملاحم المحاربين، وسير القديسين. وأشهر هذه المرويّات «الدنشمند نامه»؛ التي سُجلت في

أواسط القرن الثالث عشر، والبطال سيد غازي وهو محارب عربي أسطوري، ودنشمند غازي صهر وصديق أبو مسلم، و«سلطوك نامه» التي جمعت سنة 1470 وتتعلق بسيرة درويش محارب «ساري سلطوك»، و«حمزة نامه» وتحدث عن حصان حمزة «أشقر» الذي عاش حياة عجائبية طويلة وخدم كلاً من سيد البطال غازي وساري سلطوك. وتعتبر هذه المرويات عن التاريخ الطويل «للجهاد في سبيل الله». وهي تتميز باختلاف مراكزها الجغرافية، ففي حين كان سيد البطال غازي مقيماً في شرق الأناضول، كان مالك دنشمند مقيماً في غرب وشمال الأناضول، وفي عمق الغرب والبلقان كان ساري سلطوك.

وهذه المرويات لا بد أن يطالها الكثير من التغيير والتعديل، خلال إعادة الرواية الشفهية أو نقلها، قبل أن تأخذ شكلها النهائي في الكتابة. وانتقال هذه المرويات عبر الزمان والمكان والبيئة والوسط يبرز العديد من المشاكل. إلا أن هذه المرويات تبقى وبالرغم من ذلك مرتبطة بفهمنا للحياة الثقافية لغرب الأناضول في القرنين الثالث والرابع عشر، خاصة وأن هذه المنطقة لم تنتج كتابات تاريخية خاصة بها في تلك الفترة.

الفكرة الأساسية المشتركة بين جميع هذه المرويات هي التركيز على توسيع دار الإسلام أو كسب المتحولين. دون أن يعني ذلك خلوها من بعض العناصر التي يمكن أن تعتبر «بدعاً» من وجهة نظر الإسلام الصحيح. والحقائق التي تشير إلى التعاون بين محاربي الأناضول المسلمين والبيزنطيين منتشرة في معظم المرويات مما لا يترك أي مجال للشك حولها. فأفضل صديق مقرب إلى سيد بطال غازي هو عدوه السابق من الجانب البيزنطي. وفي «الدنشمند نامه» ينتمي الأبطال المحاربون إلى مناطق مختلفة إضافة إلى اختلافهم الديني والإثني. والتحول الديني متوقع عند الانضمام والتعاون. فلقد انضم إلى مالك دنشمند في بداية الرواية ارطوخي وهو أرمني، وجيته افروميا وهي يونانية، اللذان اعترفا بالتفوق العسكري والديني والأخلاقي لمالك دنشمند وتحولاً إلى الإسلام، وانشغالهما في الغزو هو فقط الذي منعهما من التفكير في تغيير اسميهما. ولم تقف علاقات المسلمين مع البيزنطيين عند حدود الاندماج والتعاون، بل تجاوزتها أحياناً إلى إظهار التعاطف مع الثقافة

المسيحية. فساري سلطوك يكسب المتحولين من بين البيزنطيين عن طريق إظهار تعاطفه مع ثقافتهم المسيحية، وقراءته للتوراة أمام كنيسة آيا صوفيا قبل فتح القسطنطينية «بعاطفة دفعت رعايا الكنيسة الأرثوذكسية إلى البكاء». من الواضح إذاً أن شعوب التخوم لم يجدوا أي تعارض بين نضالهم لنشر دينهم وبين انخراطهم في عمليات توفيقية مع أعضاء الأديان الأخرى. فلم يعد العالم بالنسبة للغزاة، الوثائقين بأنفسهم، مقسماً إلى «نحن» و«هم» وإنما إلى «نحن» وهؤلاء الذين «لم يصبحوا نحن بعد» والذين «سيكونون بيننا يوماً ما». وطريقة السلوك المتبصرة هذه والنابعة من تراكم تجارب الغزاة في آسيا الصغرى، دفعت المسيحيين إلى تقديس بعض أبطال الغزاة. ففي «المناقب القدسية» التي جُمعت وكتبت عام 1358 - 59 من قبل ألفان جلبي، والتي تروي مراحل حياة بابا الياس، والذي عرف أتباعه بالبابائيين، وكانت حركتهم ناجحة جداً في كسب عقول وقلوب أتباع الديانات الأخرى - وحاجي بكتاش، وهو من أتباع بابا الياس، الذي بُجل من قبل بعض المسيحيين وأطلق عليه اسم القديس شارلمبوس، كما أن ألفان جلبي نفسه أطلق عليه المسيحيون المقيمون حول ضريحه لقب صديق القديس جورج. ويعكس مناقشات البحثة المعاصرين لجهة عدم تجانس روحية الغزو مع التعاون والتسامح تجاه المشركين، فإن انسجام هذين الاتجاهين يُظهر وكأنهما واحد في أدبيات التخوم، التي توضح نقطة أساسية لروحية الغزو وهي محاولة كسب القلوب والعقول. فالعدو ليس عدواً إلى النهاية، وجميع البشر يولدون مسلمين لأن الإسلام هو دين الفطرة. في ظل مثل هذه البيئة فقط كان بإمكان نظام الدفشمة أن ينجح، حيث تم جمع الآلاف من غير المسلمين الذي أدخلوا، وتوصل بعضهم إلى أعلى المناصب الإدارية والعسكرية. وما كان بالإمكان الثقة بهؤلاء المشركين السابقين إلا في ظل مثل هذه البيئة الدينية الثقافية.

هذه المصادر جميعها لم يكن لها علاقة مباشرة بالعثمانيين. إلا أنه ومما لا شك فيه أن العثمانيين كانوا جزءاً من محيطهم وقد سمعوا بالأخبار الأسطورية للغازي سيد البطال ومالك دنشمند كما أن عناصر مماثلة من ثقافة الأوك قد أثرت بهم. فالعثمانيون قد تعاونوا أيضاً مع البيزنطيين والقوى

المسيحية الأخرى كلما ظهر لهم أن هذه الأعمال مرغوب فيها. ومن هنا فإن مفهوم الغزو السائد لا بد أن يكون قد طال العثمانيين. ولقد كان لقانون الشرف دوره الهام كلغة مشتركة لشعوب التخوم.

وإلى جانب القتال في سبيل العقيدة أو الحفاظ على الشرف، فإن محارب التخوم، أو حتى الدرويش كان بإمكانه، ودون أن يتعارض مع ذاته أو مبادئه، أن يسعى ويستمتع بالمنافع المادية للحرب، كما أنه لا يجد غضاظة أو يحس خطأ في التصريح بذلك. وهكذا فإن بعض القيم التي يظهر أنها متناقضة يمكن أن تتعايش بسلام في التخوم، فمن جهة يعيش المرء حياته مؤمناً بمثاليات عالية. ومن جهة ثانية، يتبع طريق الثروة والمجد. المهم أن يبقى الفرد على توازن بين هذين الاهتمامين. وكلمة تيمور مهمة في هذا المجال حيث قال: «إن الحرب من أجل العقيدة لها ميزتان بارزتان: الأولى أنها تعطي المحارب استحقاقاً أبدياً، وهو ضمان الجنة مباشرة في العالم الآخر. أما الثانية فإنها تكسب المحارب ثروات العالم الحاضر». إن النقطة الأساسية التي تم التوصل إليها هي استحالة إعادة بناء طبيعة ثقافة التخوم دون الأخذ بعين الاعتبار ما أنتجته بذاتها. وهذا التحليل يتناقض مع بعض النظريات الحديثة للغزاة.

تواريخ البيت العثماني

من الخطأ الافتراض أن مفهوم الغزو لم يتغير، وأنه كان واحداً منذ الظهور الأول للدولة إلى نهاية الامبراطورية. لقد تعرض مفهوم الغزو لتحولات في التفكير العثماني قائمة على استمرارية التجربة وإعادة البناء من قبل عوامل تاريخية مختلفة وبطرق مختلفة.

والتنافس بين المجموعات والشعوب حول السلطة والسيادة لا يرتبط فقط بالحاضر وإنما أيضاً بإنجازات الماضي، والتنافس في ادعاء الأعمال المجيدة فيه. فمع توسع نفوذ أي مجموعة من المجموعات، فإنها كانت أيضاً توسع ادعاءاتها حول الماضي على حساب المجموعات الأخرى التي أخضعت. والاختلافات في المصادر التاريخية التي كتبت خلال العهد العثماني يمكن أن

تقرأ كآثار لهذه المنافسة بادعاء نسبة الانجازات السابقة.

ففي منتصف القرن السادس عشر، اعتبرت الدولة العثمانية، التي أصبحت الآن واعيةً لدورها كمذافع عن الاتجاه السني الصحيح، أن الدراويش الذين سيطروا على مزار البطل أصبحوا يمثلون تياراً غير مرغوب فيه. وقد تحول دراويش البطل في القرن السابع عشر نحو الشيعة البكتاشية، بينما لم يكن أسلافهم في القرن الثالث عشر متشيعين. ولا يمكننا افتراض أن الدراويش الذين تجمعوا حول طائفة البطل أو جماهير القبائل التي نقلت ولاءها إلى الصفويين، يمثلون الروحية «الحقيقية» والأساسية للغزو، بينما تخلّى عنها العثمانيون، بل إن الإثنيين، كل من زاويته الخاصة، قد أعاد تجديد تراث البطل ومعنى الغزو. ومن الواضح وجود صيغتين مختلفتين على الأقل منذ القرن السادس عشر، واثنتاهما كانتا تعبران بطرق ودرجات مختلفة، عن نوعين مختلفين عن الروحية السابقة.

وعلى الأرجح فإن معظم الكتابات التاريخية العثمانية قد كتبت في السنوات التي تلت معركة أنقرة. ويعتبر التاريخ الأحمدي القصة الأقدم عن أوائل التاريخ العثماني. فقد كُتب للأمير سليمان، الذي كان أحد المتنافسين لإعادة وحدة الدولة العثمانية بعد خسارة والده لمعركة أنقرة سنة 1402. وقد كتب يخشي فقيه ابن إمام السلطان أورخان، مذكراته في هذه السنوات. وكتابه المناقب تعرفنا عليه من خلال كتابات لاحقة وبالأخص تاريخ أبز «APZ» والمناقب هو مجموعة أخرى من الأعمال التاريخية التي كتبت سنة 1422 وشكلت المصادر الأساسية المشتركة لأبز، ووروك «URUC» والعديد من المؤرخين المجهولين الذين كتبوا في العقود الأخيرة من ذلك القرن.

إن العطاء التاريخي المثير للإعجاب للعثمانيين في القرن الخامس عشر، يجب أن يفهم في محيط التحولات الواسع للوعي التاريخي للمسلمين - الأتراك في الأناضول. وهذه التحولات مرتبطة بنضج الهوية التركية «الحقيقية» أو المتصورة حديثاً، مع تاريخ وجغرافية المنطقة كما أعيد تشكيلهما في أواخر الفترة الوسيطة. ولقد برزت أدلة عديدة، تشير إلى وعي تاريخي جديد عند

العثمانيين، بعد مرحلة التدخل العنيف لتيمنور، ومع وصول محمد الأول إلى العرش سنة 1413 تغيرت قواعد اللعبة. وأهم الأعمال التاريخية التي أنتجت في تلك الفترة خليل نامه كتب سنة 1414 من قبل عبد الوصي جلبي. وتاريخ يزيشي زاده «Yazici Zade» الذي كتب سنة 1430، وهو يتناول قصة إمارة عثمان، والأهم من ذلك أنه يعتمد إلى محاولة أساسية ومؤثرة لاستخدام التقاليد السياسية للأوغوز لشرعنة الحكم العثماني. ومن هذه الزاوية، فإن نسب ارطغرل يعود إلى الفرع القايي المجيد لأبناء أوغوز خان. وقد شكر الله الذي وفقه لكتابة تاريخ لدعم هذه الفكرة. ثم أضيفت إلى هذه الأعمال لاحقاً مجموعة من الحوليات المجدولة «annalistic calenders» والتي كتبت من قبل علماء فلك أناضوليين، وبعض الدراويش.

إلا أن الإنتاج التاريخي الجديد لم يكتب بالضرورة مباشرة تحت وصاية البيت العثماني إبل إنه كان في بعض الأحيان متقدماً للمؤسسة العثمانية. فمع ابتعاد الذاكرة التدريجي عن التجربة التيمورية في النصف الثاني من القرن، بدأت أصوات المؤرخين الناقدة لمشروع محمد الفاتح الامبراطوري بالظهور. فالعقود الثلاثة التالية لفتح القسطنطينية وجعلها العاصمة، شهدت مرحلة من أكثر المراحل كثافة في تطوير النظام العثماني التقليدي. وأبرز مظاهر هذه العملية هو التحول من إمارة تخوم إلى امبراطورية، مع ما رافق ذلك من تغييرات في المجالات الايديولوجية والمؤسسية. ومن الواضح أنه كان هناك امتعاض من جهات مختلفة، للمسعى النظامي لمحمد الثاني لتحقيق مشروعه الامبراطوري. ومعظم هذا الاستياء وجد طريقاً للتعبير في التواريخ وفي الانتقادات ضد التوجه المركزي الامبراطوري. وأهم عمل تاريخي عثماني، «تواريخ البيت العثماني» قد كتب من قبل أشخاص عاشوا هذه الفترة وكانوا بمعظمهم دراويش مما جعلهم يتأثرون شخصياً بهذه السياسات.

وعندما استلم بايزيد الثاني السلطة بعد أبيه سنة 1481، أخذ يبحث عن مستوى مقبول للتهدة بعد سياسة والده المركزية القاسية. ففي سنة 1484، وبعد عودته من حملة ضد المشركين وإثبات أنه لم يتراجع عن روحية الغزو، أمر بتسجيل ما كان حتى الآن بأكثره تقاليد شفوية حول الآباء المؤسسين.

ومعظم الكتب الناقدة كتبت بعد هذه الفترة في محيط كان جاهزاً لسماع أصواتهم، إذ إن بايزيد كان يأمل، من وراء سياسة التساهل التي اتبعها، استقطاب الطوائف التي لم تصبح بعد ضد العثمانية بالكامل وإخضاعهم لولائه، مثل البكتاشية.

كل هذه الأعمال التاريخية إضافة إلى عدد كبير من السير يجب أن تقرأ من خلال الخلفية التاريخية التي انتجتها. فمئذ أوائل القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن السادس عشر، كانت هناك جهتان قد ادعتا الدور الهام في انتصار الإسلام الواضح على المسيحية الشرقية وهما: الدولة العثمانية والطريقة البكتاشية. وابتدأ هذا العمل بتعاون وتجانس بين هذين الغطاءين الواسعين. ولكنهما ما لبثا أن انتهيا كطرفي نقيض في السياسة والدين. ففي القرن السادس عشر برزت الطريقة البكتاشية الممثل الرئيسي المعارض للعثمانية ومحور الحركات السياسية والدينية المعارضة. ويرى الكاتب أنه ليس من الممكن تقديم نظرة شاملة للكتابة التاريخية لأوائل الدولة العثمانية هنا. وأن هدفه أساساً هو التعامل مع مسائل مختارة تعبر عن الأحداث السياسية والتطورات الأيديولوجية المعاصرة لتلك الفترة. ولا يمكن تصور الكتابات التاريخية العثمانية كطبقات متتالية في تطورها، لأن هذه الكتابات قد تضمنت أيضاً قصصاً متنافسة أو غير متجانسة تمثل أوضاعاً سياسية وإيديولوجية مختلفة.

ويتعامل لندنر مع مؤرخي القرن الخامس عشر كمجموعة متجانسة: مؤرخي بلاط. والصورة التي أعطاها لندنر للكتابة التاريخية العثمانية هي البصلة. ولب البصلة(*) في روايته هو قبيلة عثمان. ثم تراكمت الطبقات واحدة تلو الأخرى لتغطي هذا اللب وهكذا فإننا في نهاية القرن الخامس عشر، نواجه بصلة كاملة النضج. ومن هذه الزوايا تتحول الكتابة التاريخية العثمانية، إن لم نقل كل التاريخ الثقافي العثماني، إلى مجرد ارتقاء لأيديولوجية الدولة. ولو أخذنا أبرز كمثال وكرد على لندنر في آن، فإننا سنرى أن هذا الكاتب لم يكن مؤرخ بلاط بالرغم من تمجيده للكثير من إنجازات

(*) إشارة إلى عنوان فصل المؤلف: تواريخ البيت العثماني: بصل أم ثوم؟

المؤسسة العثمانية، بل إن تاريخه يعلن عن توجه انتقادي، شاركه فيه، وبدرجات مختلفة كل من أوروك والمؤرخين الآخرين. إن ارتباط أبرز الشخصي والأيدولوجي بأوساط الغزاة قد تحدد منذ فترة طويلة، وصحيح أنه قد صنف تاريخه بطلب من بايزيد، سنة 1484، بجمع أعمال أسلافه. إلا أن هذا لا يستوجب تجانساً أيديولوجياً ولا يعطي صفة رسمية لهذا التاريخ.

ويستنتج الكاتب هنا أن القراءة النقدية المبنية على الشك يمكن أن تكشف حقائق هامة. والمشكلة تكمن في الإجمال وعدم التمييز في خصائص التواريخ العثمانية. فالروايات المختلفة تحتاج لأن تفهم من منطلقاتها الخاصة ودون النظر إلى المقارنة بين الاختلافات في النصوص والتوجهات الإيديولوجية. وإذا كانت الأعمال التاريخية العثمانية يجب أن تعالج بحذر شديد. فيجب أن لا ننسى بأنها تحتوي على بعض الأشياء الثمينة النادرة التي نملكها عن أوائل التاريخ العثماني، وبدلاً من إهمالها، ينبغي علينا أن ندقق في السُدى المتجعدة لنسيجها المعقد، ونقارن بين المتغيرات بالتفصيل، ونركز على اختيار القصص والكلمات، محاولين أن نؤكد أي شيء يمكن لهذه التواريخ أن توضحه عن الحقائق العثمانية الأولى.

قضية عثمان وعمه

ولنأخذ قضية منافسة عثمان لعمه دوندار «Dundar» كمثال، ذكرها نصري ولكنها مفقودة في معظم المصادر التاريخية الأولى المعروفة. فبعد موت ارطغرل قام نزاع بين عثمان وعمه دوندار على الإمارة. ثم تخلى دوندار عن الإمارة لابن أخيه بسبب الدعم القوي له. إلا أن هذا المخرج التوفيقى كان اصطناعياً إذ نقرأ في مرحلة لاحقة (عن اختلاف في الرأي بين عثمان وعمه) إن عثمان أراد مواجهة قائد بيلسبك المسيحي، إلا أن دوندار رأى أن لهم الكثير من الأعداء وليس من مصلحتهم زيادة أعدائهم. وقد فسر عثمان هذه الإجابة، كما كتب نصري، على أنها تعبر عن رغبة عمه في تقويض مسعاه السياسي. ولذا فقد أطلق سهماً على عمه وأرداه قتيلاً.

فمن أين حصل نصري على هذه المعلومات التي لا نجدها في أي من

المصادر الأولى؟ التفسير الأقرب هو أن نصري قد أطلع على بعض الأحداث الأولى والتي اختار المؤرخون ابقاءها خارج نصوصهم. وقد ذكر ابن كمال الذي كتب بعد نصري بفترة قليلة واستخدم تاريخه، نفس الرواية. فمن المؤكد إذاً أنه قد كانت هناك قصص عثمان ودوندار ولكنها لم تظهر في نصوص أبز وأوروك والمؤرخين المجهولين الآخرين. لقد كانت وجهة نظر هؤلاء المؤرخين تقوم على أن الشكوك حول الاستقامة الأخلاقية للمؤسسة العثمانية قد بدأت بالظهور في عهد بايزيد الأول (1389 - 1402)، وأن كل الانحرافات الشيطانية عن الصفاء والمصادقية ابتدأت في هذه الفترة. وكذلك كانت مسألة قتل الأخوة والأقارب والتي اعتبرها هؤلاء المؤرخون، وبالأخص أوروك، شراً، مدعين بأنها لم تمارس قط في الأجيال الأولى. ولذلك فإنهم كانوا على ثبات في موقفهم اللاغي لكل ذكريات الصراع العائلي في الأجيال الأولى السابقة لبايزيد.

إن معظم المصادر التاريخية، ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، عندما شُرِعَ قتل الإخوة، رغم وجود معارضة له ولبعض المظاهر الأخرى من السياسة الإمبراطورية في بعض الحلقات النافذة التي سعت ليس فقط إلى محو كل ذكريات الانقسام العائلي في الأجيال الأولى، وإما أيضاً حتى مجرد وجود عم، أو إخوة منافسين، وبرأت أيضاً وبشكل واضح عثمان من مثل هذا العمل «الشرير».

أما بالنسبة لنصري وابن كمال فإن قتل الإخوة لم يكن شراً مطلقاً وإنما هو جزء مقبول من الحياة السياسية وذلك بسبب قيمته النسبية المنظورة كبديل عن حروب أهلية طويلة الأمد أو عن التقسيم. ولذلك فإن هذين المؤرخين لم يمتنعا عن تسجيل قتل عثمان لعمه، ولم يأخذوا موقفاً ضد قتل الإخوة. وابن كمال في الحقيقة ينسب إلى عثمان نفس المنطق الذي روج له قانون محمد الثاني لشرعنة قرار قتل الإخوة؛ قائلاً «إن إلحاق الضرر بفرد أفضل من إلحاق الضرر بالعامّة، فأطلق سهماً وقتل... عمه دوندار، الذي كان طامحاً إلى القيادة».

ونستنتج من ذلك، أن المؤلفين المتأخرين ربما كانوا يقولون الحقيقة التي قُمعت من قبل المؤلفين الأوائل بسبب أولويات رواياتهم. ولا يمكننا أن نفترض أن المصادر المتأخرة ليست إلا مجرد اشتقاقات عن الأولى. إضافة إلى أن هذه المصادر المتأخرة يمكن أن تقدم معلومات مأخوذة عن مصادر أولى فُقدت. وبكل الأحوال، فإن قصة نصري حول عم عثمان بعد مرور قرنين على الحدث، يبدو أنها تقرير موثوق حول حادث هام في حياة عثمان السياسية. ومن الواضح، أن مهمة المؤرخ أكثر صعوبة من مجرد استخدام المصادر القريبة أو البعيدة كمقياس لمصداقيتها. إذ إن المسألة ليست بالضرورة أن المصدر الأقرب بالزمان لبعض الأحداث التاريخية هو الأكثر ثقة. لأن هذا المصدر القريب قد يكون أكثر عرضة من غيره للتأثر بالأيديولوجية السائدة التي تُعبر عنها هذه الأحداث.

الغزو: أيديولوجية العلماء

الذين يرفضون اعطاء أي دور لمبدأ الغزو في أوائل التاريخ العثماني، يذكرونه على أنه بناء أيديولوجي متأخر. لنذكر، أهم الناقدين لمقولة الغزو، يدّعي بأن أيديولوجية الغزو منسوبة إلى علماء المسلمين الذين بدأوا بالتجمع في أراضي العثمانيين في عهد أورخان. وهؤلاء هم الذين أسبغوا سمات الماضي البطولي الديني المحافظ، فأصبح الغزو مبدأ مفيداً لتفسير السنوات التأسيسية للسلالة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا كان العلماء المسلمون القادمون من الشرق هم المخترعون والمروجون لأيديولوجية الغزو فلماذا انتقدتهم الكتب التي عكست هذه الأيديولوجية؟

حقيقة المسألة أن الشخصيات الدينية الأكثر محافظة (العلماء) كانت منافسة لل دراويش الذين مثلوا الإسلام والنضال من أجل العقيدة في السنوات الأولى للعثمانيين، والذين خسروا الكثير بقدم العلماء. إن المؤرخين الذين عاشوا في أوساط بيئة الغزو مثل أبز وغيره عبّروا عن استياء الغزاة من السياسة العثمانية الجديدة والتي لعب العلماء دوراً هاماً في وضع أسسها. والنواحي التي تعرض لها هؤلاء المؤرخون هي نفسها التي تجنبها المؤرخون المؤيدون

لسياسة الدولة العثمانية: أولاً تطور نظام الإدارة المركزية، ثم الانتقادات التي وجهت إلى عائلة الجاندرلي الذين كانوا من العلماء والذين احتكروا أعلى المناصب القضائية والإدارية في الدولة العثمانية منذ أواسط القرن الرابع عشر إلى أواسط القرن الخامس عشر. ولا بد من ذكر بعض الفقرات لبعض المؤرخين الداعمين لقضية الغزو، والمنتقدين لبعض التطورات في المؤسسة العثمانية، وللعلماء المسؤولين عن إدخال هذه «البدع».

في هذا الوقت [عهد مراد الأول] لم يكن الحكام طماعين ولكن مع مجيء الجاندرلي خير الدين باشا إلى القصر، فإن العلماء الطماعين أصبحوا مرافقي الحكام... وكل الاضطهاد والفساد في هذه الدولة مرده إلى العلماء... فهم يرتكبون الرذيلة واللواط ويتعاطون الربا ولا يفرقون بين الحلال والحرام.

وباختصار فإن أعضاء عائلة الجاندرلي، مع بقية العلماء متهمون بإدخال البدع الشيطانية إلى الدولة. ومن بين التجديدات الشائنة لقره خليل، عميد عائلة الجاندرلي، كانت ضريبة العبيد. إذ اقترح وكان قاضي عسكر في ذلك الوقت، أن خمس العبيد أسرى الغزوات، مثلهم مثل أي غنيمة، يجب أن يؤخذ إلى خزانة الدولة. وقد وافق مراد الأول على هذا الاقتراح. وكانت هذه الضريبة بداية جيش جديد تحت السيطرة المباشرة للبيت العثماني، الانكشارية، والذي كان معظم أفراده في البداية من خلال هذه الضريبة التي عرفت بال «بنجيك» أي الخمس. وهذه الانتقادات لا نجدها عند شكرالله أو ابن كمال وإنما عند أبرز والمؤرخين المجهولين.

فكيف يمكننا إذاً أن نفترض أن هؤلاء العلماء المهاجرين من المراكز الحضرية والثقافية، حيث لم يكن للغزو مثل هذه القيمة السياسية، هم الذين أحضروا ايدولوجية الغزو إلى الممتلكات العثمانية؟ إضافة إلى أن الأعمال المسجلة لهؤلاء العلماء تتناقض مع مصالح محاربي التخوم. وهذا لا يعني أن العلماء المسلمين كانوا معارضين لايدولوجية الغزو، إلا أنهم فسروها بشكل مختلف، وأعطوها لوناً محافظاً يختلف إلى حد ما عن تقاليد التخوم.

IV

ويطرح الكاتب هنا سؤالين هامين يجعل منهما المنطلق لكتابة قصته حول قيام الدولة العثمانية: لماذا تمكن العثمانيون من تسخير دينامية التخوم، وروحية الغزو، والتراث الثقافي التعددي للمنطقة بشكل ناجح أكثر من خصومهم؟ وما هي العوامل التي جعلتهم في النهاية يتفوقون على الإمارات الأخرى وحتى الدولة السلجوقية؟

مما لا شك فيه أن روحية الغزو قد لعبت دوراً، إلا أن العثمانيين لم يكونوا الشعب الوحيد الذي ادعى أنه يجاهد في سبيل الله، وكذلك الحال بالنسبة للقبيلة، أو أي مفهوم أو مبدأ أو أيديولوجية أو عقيدة أو عرق أو قانون بإمكاننا أن نتوقع منطقياً أن يكون ميزة عثمانية. إن البحث عن «أسباب النجاح العثماني» لا يمكن أن يكون أحادي الجانب لكل الفترة التاريخية موضوع الدراسة. إن الوضع السياسي والاجتماعي ككل كان في حالة تغير دائم في الأناضول، بينما كانت السلطة تتركز تدريجياً في أيدي إدارة تخدم السلالة العثمانية. ويركز الباحث على المحركات العامة لهذا التغير ومراحله المهمة في محاولة لفهم الدولة العثمانية كنسق بدلاً من فهمها كعلاقة ميكانيكية بين سبب معين ونتيجة.

وقد ركز الباحثون بشكل عام على بعض العوامل التي ساهمت في قيام الدولة. منها أولاً، موقع ولاية عثمان الذي شكل ميزة فريدة، إلا أن هذا لم يكن مسألة اعتباطية متروكة للظروف، لأن العثمانيين قد عملوا على تسخير هذه الظروف بطرق معينة ساعدتهم على تحقيق قدرهم. وثانياً، سياسة المحافظة على وحدة الإمارة العثمانية، وخاصة عند انتقال السلطة، تحت زعامة وريث واحد. وشكّلت هذه السياسة فرقاً واضحاً عن سياسة الإمارات الأخرى التي سمحت بالتجزئة منذ اعترفت بحقوق الورثة جميعاً تبعاً للتقاليد المغولية التركية. وثالثاً، اتباع العثمانيين منطق المركزية. ورابعاً، الطريقة التي اتبعتها بناء الدولة في تغييرهم الناجح لشبكة تحالفاتهم مع القوى السياسية والاجتماعية الأخرى. وصحيح أن كل الإمارات كانت واثرة للثقافة السياسية

للسلاحقة في الأناضول، وهذا ما اعتبره كوبرولو في غاية الأهمية في بناء الدولة العثمانية، إلا أن العثمانيين كانوا أكثر خبرة في إعادة تشكيل هذه الثقافة لتتوافق مع حاجاتهم، فكانوا أكثر إبداعاً في عمليات الدمج غير المتوقعة للتقاليد المختلفة، التركية والإسلامية والبيزنطية. ويحاول الكاتب في هذا الفصل إعادة رسم الخطوات الأساسية التي اتبعتها العثمانيون في طريقهم نحو بناء دولتهم.

استراتيجيات التحالف والصراع؛ الإمارة الأولى

وتختلف المصادر التاريخية العثمانية في تحديد دور الشخصيات العثمانية التاريخية. فبينما تنسب بعض التواريخ إلى ارطغرل قيامه ببعض الغزوات وتحقيق بعض الانتصارات العسكرية. يرى آخرون بأن هذا الجيل لم يكن ناشطاً عسكرياً ولا سياسياً. ويبدو واضحاً من كل هذا بأن سعي العثمانيين وطموحهم السياسي لم يبدأ إلا مع عثمان. فالظروف التي دفعت القبيلة إلى المشاركة الفعالة في الحياة السياسية للتخوم، وبالتالي إلى السجلات التاريخية، قامت حوالي سنة 1290 كما اقترح توغان. فالأكيد إذاً أن القبيلة تمتعت بارتفاع أساسي في مستوى نجاحاتها العسكرية وادعاءاتها السياسية المنظورة تحت قيادة عثمان؛ ولذا كان اسم عثمان وليس أي واحد من أسلافه، هو المعرّف للإمارة. ولا نعلم بأي اسم عرفت قبيلته قبل قدومه.

وإذا كان الغموض لا يزال يحيط بالسنوات الأولى من حكم عثمان، فهذا الغموض أيضاً يطال هويته الذاتية. أقدم المصادر البيزنطية تهجى اسم عثمان كالتالي: أتومان «Atouman» أو أتمان «Atman» واستنتج بعض الباحثين من ذلك أن مؤسس الإمارة العثمانية كان له اسم تركي في البدء، على الأرجح أتمان «Atman» ثم تغير لاحقاً إلى عثمان. والغريب أن مصدراً من أقدم المصادر العربية التي ذكرت اسم عثمان، المؤرخ والجغرافي العمري سنة 1330 يتهجى الاسم أيضاً بالطاء في محلّين ثم يذكره لاحقاً بشكل صحيح. وهناك صدى لهذا «الاسم الآخر» في مصدر تركي متأخر، سيرة حياة الحاج بكتاش المكتوبة في القرن الخامس عشر.

ولا نحتاج هنا إلى إعادة إحياء نظرية غييون التي تقول بتحول عثمان من الوثنية إلى الإسلام لتفسير تغير اسم عثمان وجعل هذا التغير ممكناً تاريخياً. فالأسماء التركية، كانت وما تزال، تعطى للأطفال الذين يولدون كمسلمين. فمن يولد باسم تركي لا يعني بالضرورة أنه غير مسلم. إلا أنه إذا كان الاسم الفعلي لعثمان هو أتمان ثم تبنى لاحقاً اسماً عربياً أكثر هيبةً وأشرف مقاماً، فهذا يمكن أن يدل على نقطة انعطاف هامة في الهوية الذاتية أو الأيديولوجية السياسية للعثمانيين الأوائل.

أما طبيعة مفهوم التخوم في غرب الأناضول فقد تميزت بوجود وحدات صغيرة مستقلة لكل منها مساحة أرضية معينة. وكل القرارات والتحضيرات المتعلقة بالحرب والسلام، التحالف والصراع، كانت تؤخذ محلياً من قبل قادة هذه المجموعات. هذا على الرغم من أن المنطقة لم تكن خالية تماماً من تدخل السلطات الكبرى في المراكز السياسية الأساسية. ولم تكن كل القوى الكبرى حاضرة دائماً وبنفس القوة وفي نفس الوقت وذلك بسبب قدراتهم ومصالحهم المتغيرة. إلا أنه وعلى الرغم من كل شيء، فقد كانت لهذه القوى سلطة إعطاء الشرعية للقوة المحلية، وقد كانت هذه الشرعية جزءاً من اللغة السياسية لمجتمع التخوم. وبالنسبة للجانب الإسلامي - التركي في غرب الأناضول في العقد الأخير من القرن الثالث عشر، فقد كانت هناك طبقات سلطوية متعددة: خانات المغول وحكامها، سلاطنة السلاجقة والمماليك، أمراء سلاجقة لهم وجود مادي وعسكري في التخوم، أمراء القبائل، أمراء الأوك المعينون والمُعترف بهم من المغول أو السلاجقة، الوجهاء الدينيون وأتباعهم، المغامرون والطامحون. وانطلاقاً من هذه الأرضية المعقدة والمتغيرة لمناطق التخوم، كان من الصعب الحديث عن «الجانب الإسلامي - التركي» ككيان ذاتي مغلق، أو «كمجموعة قومية».

وأظهر عثمان براعة سياسية في هذه البيئة حيث التحالفات تتجاوز الخطوط القبلية والإثنية والدينية. يتحدث أبز عن علاقات عثمان الودية مع قادة المدن والقرى المسيحية، وليس هناك من سبب يدعونا إلى افتراض أن هذه القصص هي من تلفيق القرن الخامس عشر.

إن مفهوم الغزو يرتبط بمبدأ الشرف. الصداقات القديمة، الخدمات والوعود والارتباطات كان لها وزن معين وتأثير على روحية الغزو. ومن الممكن نقض تحالف أو ارتباط إلا أن هذا النقض يحتاج إلى معنى من ضمن هذا المفهوم. وأفضل محاربي التخوم هم أولئك الذين يستطيعون المحافظة على قضيتهم بشجاعة وإصرار، ويظهرون تعاطفاً وشهامة نحو العدو. وصلاح الدين الأيوبي هو مثال محاربي العصور الوسطى. وتأتي علاقات عثمان مع ميهال «Mihal» أحد جيرانه البيزنطيين كدليل على علاقات عثمان الودية مع المسيحيين. وقد كان لميهال وعائلته مرتبة هامة بين الغزاة وفي خدمة الدولة العثمانية ثم تحول لاحقاً إلى الإسلام. وكان الصراع العثماني مع التتار والجرمانيين أشد منه مع المسيحيين المحليين في أوائل الدولة العثمانية.

ولقد تصرف عثمان ببعد نظر واستراتيجية طويلة المدى، وربما اتبع في ذلك غريزته ومتطلبات اللحظة. إلا أنه لم يخطئ في فهمه للنتائج المستقبلية للعلاقات العائلية التي أقامها لنفسه ولابنه. فإحدى زيجاته كانت لابنة شيخ هو رأس مجموعة مزدهرة من الدراويش والرعاة في التخوم. فزواج عثمان من ابنة الشيخ ادي بالي والذي يظهر في نهاية قصة الحلم الذي لا شك أنها مختلفة، وبسبب ارتباط القضيتين ببعضهما البعض، شك كذلك بقصة الزواج. إلا أن بعض المصادر المتأخرة تطلق على ادي بالي «والد زوجة عثمان». كما ذكرت قصة وجود الشيخ ادي بالي في غرب الأناضول وعلاقته بالبابائية في كتاب سير ألفان جلبي الذي كتب سنة 1358 - 1359. وزواج ابنه أورخان من ابنة تكفور يرحصار «Yarhisar» كان مرتبطاً كذلك باستراتيجية سياسية.

أما بالنسبة للاستراتيجية العسكرية للعثمانيين الأوائل، فإننا لا نعرف عنها شيئاً أكيداً حتى معركة بافوس «Bapheus» وهي أول حدث مؤرخ في تاريخ عثمان، حيث انتصر في مواجهة مع قوة بيزنطية سنة 1301 - 1302. المؤرخ البيزنطي باشيميرس «Pachymeres» ذكر هذا الحدث مضيفاً أن عثمان قد أغرى الكثير من الترك بالانضمام إلى قواته. فلا بد إذاً من أنه كان يوجد في التخوم قسماً كبيراً من المشاركة بين المحاربين، وتجاذب لهم من قبل رؤساء القبائل. إن استراتيجية عثمان وقدرته على اجتذاب متطوعين في فترات نشاط

عمليات الغزو لا بد أن تكون قد نمت. إلا أن العثمانيين لم يكونوا، ولفترة طويلة، أفضل الممثلين لنشاط التخوم. وهذا ما ساعد الإمارة العثمانية، كما يرى البعض، في بناء مؤسساتها وتقاليدها السياسية بشكل تدريجي وثابت أكثر من الآخرين. إذ جنبهم ذلك الحملات العسكرية من قبل المراكز الكبرى لإخضاع الأمراء المستقلين بأنفسهم. إلا أنه لم يكن بالإمكان الحفاظ طويلاً على الطبيعة التعايشية السابقة للعثمانيين مع جيرانهم، فقد أدت الطموحات السياسية إلى غزوات وعمليات عسكرية جديدة كالحصار والفتح لمدن محصنة. وفي كل هذه العمليات، كان عثمان ومحاربوه يتصرفون بحس تكتيكي واستراتيجي رائع أدى في النهاية إلى استيلائهم على بثينة. وقد أثبت خليل اينالجك مؤخراً بأن فتوحات عثمان قد بُنيت على منطق عسكري واضح.

مركز قاعدة سلطة عثمان ساهم في تحقيق نجاحاته. فمدينة «Sogut» التي تقع على مرتفع يسهل الدفاع عنه، على الطريق الرئيسية التي تحيط بها المرتفعات وتمتد من القسطنطينية إلى قونية، كان لها دور جغرافي وسياسي هام. لقد كان لهذا الموقع الصغير أهمية بسبب التجزئة السياسية للمنطقة، ووضع القوات الموالية لعثمان في نهاية طرف التخوم. فبعد أن انتهى العثمانيون من مواجهاتهم مع الجرمانيين والقبائل التترية، ووجهوا انتباههم نحو مدن بثينة البيزنطية، برز دور هذا الموقع العسكري - الاستراتيجي، والسياسي - الاجتماعي لجيران من الداخل.

وفي ظل عالم التنافس في التخوم، لا شيء ينجح مثل النجاح. إن نجاح هذه المؤسسة الصغيرة التي يرأسها عثمان وأبناؤه في سلسلة من الغزوات والفتوحات لمدن صغيرة في بثينة، قد دفعت بالكثيرين، ليس فقط من المحاربين، وإنما أيضاً من الدراويش والعلماء، للانضمام تحت قيادتهم. ويذكر أبز أن «عدالة وكرم» العثمانيين الأوائل، دفعت بالمزارعين البيزنطيين الهاربين من المناطق المفتوحة للعودة مجدداً إلى مزارعهم. كما أن بعض الضرائب الجائرة قد ألغيت وبعضها الآخر قد خفّض في ظل الحكم العثماني الجديد. لقد أدرك العثمانيون أن الوضع الجيد لرعاياهم هو «السبب في إطالة أمد الدولة واستمرار النظام في الامبراطورية»، واتبعوا اعتبارات براغماتية،

فالعادلة واللين والتساهل النسبي يمكن أن تخفف من التوتر بين الحكام والرعايا، خصوصاً وأن الحكم العثماني كان لا يزال يانعاً وغير مستقر. ولحق بالاعتدال الضرابي الأمان الذي أصاب المناطق التي وقعت تحت حكم مستقر؛ وكل ذلك ساهم في جعل الحكم العثماني أكثر قبولاً.

وبما أن الإمارة العثمانية كانت في موقع تحد دائم مع الامبراطورية البيزنطية، فقد تمكن العثمانيون في بضعة عقود من البروز كقوة دفاع أساسية في وجه هذا التحدي. والعمرى، المؤرخ الجغرافي العربي، يُبرز العثمانيين لوحدهم في هذه الفترة كقوة متصارعة عسكرياً مع البيزنطيين. وعندما مرّ ابن بطوطة على إمارات المنطقة سنة 1330، وصف أورخان على أنه «أعظم أمراء التركمان بالأرض والجيش والثروة» إلا أن كل الميزات الاستراتيجية والفرص المادية ما كانت لتعني أي شيء لو لم يستغلها العثمانيون برؤية بعيدة المدى؛ وهذه الرؤية كانت تتحدد وتتبلور باستمرار من خلال مسار الأحداث وتطوراتها.

وفي منتصف 1320 كان للعثمانيين نظام إداري - عسكري معقد لإصدار نقود باسمهم، وإعطاء مناصب للعبيد، وإقامة الأوقاف، وإصدار الوثائق المكتوبة (بالفارسية) ولامتلاك مدينة مهمة كبورصة. إلا أن أهم إنجاز مبتكر للرياسة في هذه السنوات، هو تخطي الإمارة العثمانية لاستحقاق موت عثمان دون أية خسارة لوحدة الإمارة. ربما كانت هناك بعض الأصوات المعارضة، إلا أن ما نعرفه هو أن أورخان خلف والده دون أن تمس مملكته، بالرغم من أن أورخان لم يكن الولد الذكر الوحيد لعثمان، فلماذا لم تقسم إمارة عثمان بين ورثته؟ لو اتبع العثمانيون التقليد التركي - المغولي كما فعلت الإمارات الأخرى المحيطة بهم، لبقى أورخان الحاكم الأعلى على إخوته الآخرين، إلا أنه سيكون لهؤلاء الإخوة عمل ومناطق نفوذ. وهذا هو التقليد الذي اتبعه الجانكيزخانيون وسلاجقة الأناضول، الذين يمثلون التقاليد السياسية للدولتين العظيمين اللتين أخذت عنهما الإمارات الأخرى تقاليداً سياسية. لم يشرك أورخان أياً من إخوته في خلافته كما أن إمارة عثمان لم تقسم. ولذا يبدو طبيعياً أن نبحث عن «سياسة عثمان إزاء الخلافة» من خلال حالة واحدة (هي

أورخان طبعاً). لقد سادت الانفصالية في الإمارات الأخرى، بينما بقيت أراضي الإمارة العثمانية موحدة المرة تلو المرة على الرغم من أنها لم تنظم إلا في عهد محمد الثاني الذي شرّع قانون قتل الإخوة.

وقد وجد مؤرخو القرن الخامس عشر شيئاً نوعياً في السلوك العثماني للخلافة وحاولوا تفسيره. إذ يرى أبز مثلاً، في خلافة عثمان شيئاً مميزاً: ويعزى إلى عثمان أنه أعطى العرش لأورخان عندما كان لا يزال حياً، حتى يتم قبول هذا الرجل الشاب في حياة أبيه. مما يعني أن عثمان كان ينوي عدم ترك أي مجال لتحدي خلافة ابنه للأراضي والقبيلة العثمانية. وبالنظر إلى سياسة الخلافة التي اتبعتها عثمان على المدى الطويل يتبين أنه لم تظهر سلالات جديدة في عشيرة عثمان، وأثبت العثمانيون على المدى الطويل أنهم تلامذة أفضل للتاريخ من منافسيهم، ليس فقط في سياسة الخلافة وإنما أيضاً في تعاطيهم مع التحديات الحقيقية الأخرى لسلطتهم المركزية.

التحديات للسلطة العثمانية

لم تكن الخلافة هي الاستراتيجية الوحيدة التي اتبعتها العثمانيون للحفاظ على سلطتهم المركزية وعلى حدود ممتلكاتهم، إذ كان عليهم مواجهة مراكز النفوذ الأخرى التي كانت تنشأ في ممتلكاتهم خلال بعض الظروف التاريخية التي مروا بها. وأبرز هذه التحديات كانت محاولة حاجي الباجي الاستقلال في ثراث «Thrace» بين سنوات 1360 و1370. وقد كان لحاجي الباجي الفضل في نقل نشاطات الغزو إلى ثراث وفي الانتصار الساحق على القوات الصربية سنة 1371، إلا أنه قتل في النهاية على يد قائد موال لمراد الأول ابن أورخان. ومهما كانت صحة هذه الروايات التاريخية فإنها تثبت أن التوجهات الانفصالية قد بلغت أوجها في السبعينات من القرن الرابع عشر، وأن العثمانيين كانوا يواجهون نوعاً من الأزمات التي أدت إلى ظهور إمارات انفصالية في الدول الأخرى في المنطقة. وتمكن العثمانيون من مواجهة هذا التحدي بالتعاون مع قيادات عسكرية أخرى وباتخاذ إجراءات صارمة وعنيفة أحياناً.

وما كانت هذه الإجراءات لتنجح لو لم يطور العثمانيون جهاز حكمهم المعقد. وبالتأكيد لم يكن من باب المصادفة ابتداء العثمانيين للإنجاز الحقيقي لتكنولوجيا السلطة المركزية خلال أزمات 1370 وما بعدها. فبعد ملاحظتهم لضعف الروابط بين المحاربين أنفسهم من جهة وبينهم وبين البيت العثماني من جهة ثانية، ابتدعت الدولة الناشئة جيشاً جديداً هو الانكشارية مؤلفاً من جنود كانوا عبيداً، حتى يكون ولاؤهم الوحيد للسلطان.

إن التعقيدات المؤسسية لإمارة عثمان قد ظهرت مبكراً وقبل وصول عائلة الجاندرلي التي سيكون لها دور هام في تعزيز السلطة المركزية العثمانية. فبدلاً من الجاندرلي قره خليل سيطرت ثلاثة أجيال من هذه العائلة على الوظائف العليا في الإدارة، ولعبت دوراً هاماً في بناء بنى معقدة للحكم دعمت التوجهات المركزية للدولة العثمانية. وإذا كانت الحركة والمرونة هي من خصائص التخوم في أناضول العصور الوسطى، فإن النجاح العثماني كان في استخدام هذه الحركة لتحقيق غايات العثمانيين، بعد ترويضها وإعادة تشكيلها لتناسب مع رؤيتهم القائمة على الاستقرار والمركزية. فنظام مثل نظام الدفشرمة (ومنه الانكشارية) حيث كان يتم جمع الصبيان من عائلات الفلاحين غير المسلمين ثم «يحولون إلى عثمانيين» ويرفعون إلى أعلى مراتب الحكم، ما كان يمكن رؤيته إلا من خلال دولة ولدت في ظروف التخوم.

أما القوى الاجتماعية التي تضررت من هذه السياسة المركزية فكان على رأسها قادة الحركات الدينية الصوفية، الذين تمثلوا في أشخاص البابات «Babas» وأشهرهم على الإطلاق حاجي بكتاش. وقد اعتمد العثمانيون كثيراً على خدمات هؤلاء البابات في مراحل بناء دولتهم الأولى، ولكنهم في النهاية فضّلوا الحركات الدينية المدنية الأكثر علماً وحادثة، خصوصاً بعد أن تحوّل بعض حلفائهم القدامى من الدراويش إلى أعداء. مجموعة أخرى عانت من القوة المركزية في الإمارة العثمانية النامية، ومن التبني العثماني في النهاية لمفهوم إمبراطوري في الإدارة والحياة الثقافية، هذه المجموعة هي محاربو التخوم وعلى رأسهم أمراء الأوك. ويسبب ندرة المصادر فمن الصعب أن نعرف بالتحديد البدايات الأولى للصدام بين البيت العثماني وحلفائه.

أما التوتر النظامي والعميق فنشأ بين الغزاة الذين اعتادوا أن يروا أنفسهم شركاء لأمرء البيت العثماني، واستياؤهم يعود على الأقل إلى الربع الأخير من القرن الرابع عشر. ولم يتحول كل الغزاة والدرأويش إلى متمردين، كما لم تؤيد كل القبائل القضية الصفوية، لكن هذه القضية عرضت نفسها كخيار ثقافي وديني وسياسي منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر. ولا يمكننا أن نتوقع لهذه الفئات الاجتماعية المعقدة (الغزاة والدرأويش والقبائل) أن تتصرف كمجموعة واحدة.

الكثيرون من الغزاة «المعتدلين» أو «المتأقلمين» استمروا في عملياتهم في البلقان في خدمة الدولة العثمانية ولكن بشكل يختلف عما كانت عليه الحال إبان استقلاليتهم في أوائل الدولة العثمانية. لماذا وقف بعض الغزاة مع الدولة العثمانية؟ لأن دولة مركزية يمكن أن تؤمن لهم نسبياً الأمان، ومن الممكن أن تجعل غزواتهم اللاحقة مربحة أكثر. ولذا كان من الطبيعي أن يكون قبول مستوى معين من الخضوع خياراً معقولاً بالنسبة لبعض المحاربين. ولذا فإن روحية الغزو أخذت تدريجياً تنحو نحو مزيد من التفسيرات «المحافظة» متأثرة بالاتجاهات الجديدة للإدارة السنية المستقرة. وعلى كل حال نستطيع القول أن ورثة تقاليد الغزو الأولى في نهاية القرن الخامس عشر كانوا قد ابتعدوا بشكل عام عن الاتجاه العثماني السائد.

ومهما كانت عظمة الدور الذي لعبه الغزاة في ظهور الدولة العثمانية، فإنهم لا يمثلون أكثر من جزء معين من مجتمع التخوم في أناضول العصور الوسطى، مع عاداتهم الخاصة وتطلعاتهم ومصالحهم وتحالفاتهم ضمن ائتلاف حظي بنجاح كبير أدى في النهاية إلى ابتلاع بعض أعضائه. لقد مثل الغزاة فئة اجتماعية صلبة، تُركت في النهاية خارج الطبقة الحاكمة بسبب ظهور الإمارة المركزية بقيادة البيت العثماني، الذي كان يوماً ما مثلهم واحداً من أمراء الغزاة. لقد أصبحت عمليات الغزو تخضع لقرارات الباب العالي. فالغزوة لم تعد مسألة على مستوى المحلة أو المنطقة وإنما أصبحت مسألة في المجال العالمي الحقيقي. ولذا فعندما وقع سليمان القانوني معاهدة سلام مع آل هابسبورغ وكان في نيته الحفاظ عليها أمر قائد الغزاة ميهال أوغلو بالامتناع

عن القيام بأية غزوة في أراضيهم.

إن فتح العاصمة البيزنطية في سنة 1453، وجعلها مدينة إسلامية، حقق الحلم الراسخ والهدف الأسمى للمحاربين المسلمين وأتباعهم لقرون عديدة. إلا أن هذا الإنجاز أيضاً قد وضع النهاية الحاسمة لمناطق التخوم كتجمعات لمؤسسات سياسية. فجعل اسطنبول عاصمة لدولة مركزية، كما أرادها محمد الثاني، لم يكن بأي شكل من الأشكال نية كل الفاتحين. كانت مدينة تتويج محمد الفاتح جزءاً من مشروع سياسي جُوبه بقوة في بعض الحلقات. وقد تضمن المشروع بناء سلطة إدارية لإمبراطورية مركزية على رأسها البيت العثماني، والتي تمجد ماضيها الغازي ولكنها تُعرّف عن نفسها الآن بشكل جديد. إن مسيرة المركزية يمكن أن نعود بها وبالتأكيد إلى أوائل التاريخ العثماني، أما الآن فقد أعطيت شكلها الأكثر جذرية ونظامية. فمحاربوا التخوم أخضعوا نهائياً مع العديد من المجموعات الأخرى الذين كان أسلافهم شركاء في المؤسسة العثمانية الأولى، لسيطرة الدولة المركزية. لقد كانت المركزية واحدة من الديناميات لأوائل التاريخ العثماني، ثم أصبحت الدينامية المسيطرة في تحديد شكل الدولة التي بُنيت في نهاية هذه العملية التنافسية. والقرن اللاحق لفتح القسطنطينية شهد ليس فقط المزيد من الفتوحات وتوسيع أراضي الامبراطورية، وإنما أيضاً تطورات مؤسساتية عزّزت وضع الامبراطورية كدولة. فالقوانين وخلق إجراءات بيروقراطية وزيادة الاعتماد على الخدم - العبيد كإداريين، وإقامة هرمية من العلماء مرتبطة بالدولة، كل هذا شكّل أهم العناصر في عملية التماسك التي رفعت المركزية المطلقة إلى أوجها. وترافق هذا كله مع نهضة أدبية فنية، معمارية وتاريخية، فشكّلت الثقافة والمؤسسات السياسية في منتصف القرن السادس عشر التعبيرات التقليدية لتكنولوجيا وايدولوجيا السياسة العثمانية بالنسبة للأجيال القادمة، لأن الامبراطورية قد دخلت في مرحلة اللامركزية في نهاية هذا القرن.

وكما كان على الشركاء المحاربين والقوى الاجتماعية الحليفة لعهد التخوم أن تُخضع أو تُقضى من أجل تأمين سيادة السلطة العثمانية، كذلك فإن تراثهم كان ينبغي أن يدجن أو يُقمع أو يُهمش من أجل تعزيز هذه السلطة. إن

الدولة العثمانية، مثلها مثل أي من زميلاتها، بُنيت ليس فقط في الحقيقة وإنما أيضاً في مخيلة الشعوب وذلك بفضل المؤرخين.

كلمة أخيرة يجب أن نضيفها هنا، وهي أننا لا نتعرف من خلال هذا الكتاب على رواية تاريخية هامة حول بناء الدولة العثمانية فقط، وإنما أيضاً على طريقة منهجية مُبدعة تنير لنا الطريق في بحثنا العام ليس فقط عن حقيقة قيام الدولة العثمانية، وإنما أيضاً عن أية حقيقة تاريخية معقدة تتضارب حولها الآراء ونسعى إلى جلاء صورتها.